جامعة الكوفة / كلية الآداب

قسم اللغة العربية

قصيدة الأشباه

للشاعر المفجع البصري (ت ٣٢٧هـ)

دراسة تحليلية

ا.م.د. حسن عبد عودة الخاقاني

ا.م.د. حسين عبد حسين الوطيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد.

لقد عرف الأدب العربي قديما وحديثا الكثير من الشعراء الذين كان لهم دور كبير في إرساء صرح الرسالة المحمدية، والوقوف إلى جانب أهل البيت (عليه السلام) لتبيان حقهم والدفاع عنهم ضد مناوئيهم، فكان نصيبهم خمول الذكر والنسيان في طي الزمان ، وإهمال شعرهم انسجاما مع توجهات السلطة الحاكمة التي ترى ضرورة خنق الأدب المعارض وتزييفه

ويعد المفجع البصري أحد هؤلاء الشعراء الذين عمدت أقلام بعض الكتاب إلى تشويه أشعارهم ومحاولة محو ذكرهم ، بسبب من أن التعصب للبيت العباسي كان قد بلغ ذروته في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين، وأن ملاحقة العلويين ومن تشيّع لهم وناصرهم كان من الأمور التي تشغل بال الخليفة وتقض مضجعه .

الشاعر :

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الكاتب النحوي البصري،شاعر مفلق ولغوي بارع، ولد في مدينة البصرة، فكان شاعرها وأديبها، قضى فيها حياته حتى وفاته [١] .

عُرِفَ عنه حب أهل البيت (عليه السلام) و مديحهم ورثائهم ، وبالغ في رثائهم حتى لقب (بالمفجّع) ، وهو لقب أطلقه عليه خصومه استهزاء به ، فراح الشاعر يرد عليهم بتأكيد ما قالوا فيه، واثبات صحة تفجعه على أهل البيت (عليه السلام) دون سواهم ، وقد أشار النجاشي إلى ذلك بقوله : (وله شعر كثير في أهل البيت يذكر فيه أسماء الأئمة، ويتفجّع على قتلهم ،حتى سمي المفجّع ، وقد قال في بعض شعره :

إن يكن قيل لي المفجّع نبزا   فلعمري أنا المفجّع همّا[٢]

تباينت المصادر في سنة وفاته لكن الراجح أنه قد توفي سنة ٣٢٧هـ بسبب من خصومة وقعت بينه وبين أحد قضاة البصرة .

قصيدة الأشباه :

لعل أشهر ما قاله الشاعر في مدح أهل البيت (عليه السلام) هي قصيدة الأشباه أو ذات الأشباه وفيها يمدح أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) ويعدد فضائله ومناقبه، ويتطرق إلى الأحاديث الشريفة بحقه ،مظهرا أوجه الشبه بين الإمام علي (عليه السلام) وسائر الأنبياء.

تقع القصيدة في (١٦٠ بيتا) ، وقد سميت بهذا الاسم استنادا إلى حديث مشهور عن النبي (ص) قاله في محفل من أصحابه : من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه ، وإلى نوح في فهمه ، و إلى إبراهيم في خلقه ، وإلى موسى في مناجاته، وإلى عيسى في سنته، و إلى محمد في هديه وحلمه،فلينظر إلى هذا الرجل المقبل،فتطاول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)[٣] ،من هنا نظم المفجّع قصيدته .

ـ عرض تحليلي موجز للخصائص الموضوعية :

بنيت القصيدة على مبدأ الشبه أو التشابه، وهو يعني أنها معنية بهذا الأمر الذي يبدأ من قوله :

أشْبَهَ الأنبياءِ كَهْلا وَزَوْلا وفَطِيمـــــا وراضِعـــــا وغَـــذيّا

كان فـــــي عِلْمهِ كآدمَ إذ عُلّم شـــرْح الأسماء والمـــــكْنيّا [٤]

فهو يستقصي هذه التشابهات بدءا من النبي آدم (عليه السلام) في صفة العلم استنادا إلى قوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[٥] ، فهو يعلم الأسماء ما ظهر منها وما بطن، وهكذا كان الإمام علي (عليه السلام) لما علمه رسول الله (ص) ففاق غيره .

ثم يعقد الشاعر الشبه مع النبي نوح (عليه السلام) في صفة الخلاص والنجاة من الغرق، بحمل المخلوقات في الفلك المشحون، ذلك الفلك الذي غدا رمزا للنجاة من الضلالة إلى الهدى، فيقول :

وكنوحٍ نجّى من الهُلكِ من سيّر في الفُلكِ إذ علا الجوديّا [٦]

وكذلك كان الإمام فهو رأس أهل البيت الذين جعلهم النبي (ص) كسفينة نوح من ركبها نجا،ومن تخلف عنها غرق [٧] .

ويثير البيت السادس مشكلة من مشكلات انسجام النص ، فيقول الشاعر:

وعليّ لمّا دعاه أخُوهُ سبقَ الحاضرينَ والبدويّا [٨]

إذ يبدو هذا البيت مفاجئا في محتواه،ولا يكاد يستقيم حضوره في النص إلا بالانضمام إلى الأبيات الثلاثة التي أسقطها المحقق من القصيدة،بوصفها من المنحول الذي قد دخلها [٩] ؛إذ نجد أن هناك اختلالا في النسق الفكري بادعاء كفر أبي طالب والد الإمام، ولا نكاد نجد حلا مقبولا لهذا الإشكال إلا بإلحاق هذا البيت بالأبيات الثلاثة،أي يجري عليه حكم الإسقاط حفاظا على مبدأ الانسجام الذي ذكرناه آنفا .

ويستغرق الشبه بين الإمام وجده النبي إسماعيل (عليه السلام) تسعة أبيات بدءا من قوله :

وله من أبيه ذي الآيدي إسما — عيل شِبْهٌ ما كـــان عني خفيّا
إنه عاونَ الخليلَ على الكعـ — ـــبةِ إذ شاد رُكْنـــها المبنيّا
ولقد عـــاونَ الوصيُّ حبيبَ — الله إذ يغْسِلانِ منـــها الصُّفيّا
رامَ حملَ النّبيَّ كــي يقلعَ — الأصْنامَ من سَطْحها المُثُولَ الجثيّا
فحنـــاهُ ثِقْلُ النّبوَّة حتــى — كادَ ينـــآدُ تحتـــهُ مثْنـــيّا
فارتقـــى مَنْكِبَ النّبيِّ عليٌّ — صِنْوُهُ مـــا أجلَّ ذاك الرّقيّا
فأماط الأوثانَ عن طاية الكعـ — ـبةِ ينفي الأرجـــاسَ عنها نفيّا
ولو أنّ الوصيّ حاولَ مسّ النـ — ـجْمَ بالكفِ لــم يَجِدْهُ قَصيّا
أفَهَـــلْ تعرفون غــيرَ عليٍّ — وابنهِ استرْحَـــلَ النّبيَّ مطيّا (١٠)

فإسماعيل أعان أباه إبراهيم (عليه السلام) ببناء الكعبة، والإمام علي(عليه السلام) قد أعان الرسول محمد (ص) بتطهير الكعبة من رجس الأوثان، وهنا ينفتح النص لذكر حوادث يوردها الشاعر بوصفها فضائل شريفة للإمام لم يشركه أحد فيها،فهو إن عجز عن حمل ثقل النبوة على منكبيه القويين فذلك لعظم مقام النبوة الشريفة، وهو إن ارتقى ظهر النبي الكريم،فذلك تشريف، بل شرف عظيم قرنه الشاعر بمس النجوم،وهذه إشارة فنية ناجحة لتعظيم الحادثة من طرفيها: النبي والإمام معا،وهو مأخوذ من قول الإمام في ذلك المقام : (إنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء) (١١) .

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى مستمعيه المفترضين بصيغة الجمع : أفهل تعرفون؟ لكنه يضيف إليه في فضيلة ارتقاء منكب النبي (ص) ابنه،أو ابنيه الحسن والحسين (عليه السلام) ، وهما طفلان صغيران كان النبي (ص) يحبهما حبا شديدا ويأنس بهما فيرقيهما على ظهره الشريف ، وهي من الحوادث التي أفاض في ذكرها المؤرخون والشعراء .

و يقف الشاعر عند شبه الإمام (عليه السلام) بالنبي يعقوب (عليه السلام) من ناحية الأسباط ، قائلا :

ولـــه من نعوتِ يعقوبَ نعتٌ — لم أكن فيه ذا شَكُوكٍ غبيّا

كان أسباطُهُ كأسباطِ يعقـــــو بَ وإنْ كـان نجْرُهُمْ نبويّا
أشبَهوهُم في العلمِ والبأسِ والعُدّ ةِ فافْهَم إنْ كُنْتَ فهْما ذكيّا
كُلّهم فاضلٌ وحــــازَ حسينٌ وأخوهُ بالسِبْقِ فضلا سنيّا (١٢)

وهو ما يعطي النص صفة التماسك موضوعيا ؛إذ انتقل الشاعر إلى قصة الأسباط هذه من القطعة السابقة التي اختصت بارتقاء الإمام وابنه ـ وهو سبط ـ ظهر النبي الشريف، وهنا يمتد بهذه القطعة نحو استقصاء صفة هؤلاء الأسباط ذوي الأصل النبوي الطاهر،حتى يأتي على ذكر الإمامين الحسن والحسين (عليه السلام) ، بتسمية (الحسين) و ذكر أخيه بالصفة .

ويعزز الشاعر صفة التماسك في نصه أيضا عندما ينتقل إلى قضية الذبح والفداء المتعلقة بالأبناء أيضا؛قائلا :

وله من صفات إسحاقَ حالٌ صارَ فَضْلهَا لإسحاقَ سِيّا
صبْرهُ إذْ يُتلُّ للذبْحِ حتى ظلّ بالكبشِ عندها مفْديّا
وكذا استسلم الوصيُّ لأسيا فِ قريشٍ إذ بيّتُوه عَشيّا
فوقى ليلةَ الفراشِ أخـــاهُ بأبــــي ذاك واقيا ووقِيّا
كان مثلَ الذّبيحِ في الصّبْرِ والتّسْـ ـليمِ سَمْحا بالنفسِ ثُمّ سَخيّا (١٣)

فالمعروف أن النبي إبراهيم (عليه السلام) امتحن بالرؤيا التي دعته إلى ذبح ابنه إسماعيل فداء،ولكن الله قد افتداه بذبح عظيم حين صدّق إبراهيم الرؤيا، ولكن الشاعر ـ وهما منه ـ أو انطلاقا من رواية ما، يحيل القضية إلى إسحاق (عليه السلام) وليس إسماعيل كما هو المشهور(١٤) ، لينطلق من ذلك إلى فداء الإمام النّبيّ في الليلة التي بيّتت فيها قريش أمر قتله، فنام الإمام في فراشه وقاية له بنفسه من عدوه (١٥) ، فهو في هذا مثل الذبيح صبرا وتسليما، وفداء بالنفس للنبي (ص) .

ويستقصي الشاعر أبناء يعقوب وأشهرهم يوسف (عليه السلام) الذي ذكره الشاعر باسم (ابن راحيل) زوج يعقوب، قائلا :

وابنُ راحيلَ يوسفَ وأخوهُ فضلا القـــومَ ناشِئا وفَتيّا

ومقالُ النّبيِّ في ابنيه يحْكي   في ابن راحيلَ قولهُ المرويّا
إنّ ذاك الكريمَ وابنيهِ سادُوا   كُلَّ من حلّ في الجَنانِ نَجيّا [١٦]

مفيدا بذلك من قول الرسول (ص) في الحسن والحسين بوصفهما سيدي شباب أهل الجنة ، وكذا أبوهما قطعا [١٧] .

ويعرج الشاعر على ذكر شبه الإمام بالنبي داود (عليه السلام) ، ثم سليمان (عليه السلام)، قائلا :

كان داودُ سيْفَ طالوتَ حتى   هزَمَ الخيلَ واستباحَ العَديّا
وعليٌّ سيفُ النّبـــــيِّ بسَلْعٍ   يومَ أهوى بعمْرُو المَشْرَفيّا
فتولّى الأحزابُ عنه وخـلّوا   كبْشَهم ساقطا يَخــالُ كَدِيّا
أنبأ الوحيُ أنّ داودَ قد كـــا   ن بكفّيهِ صانِعا هَالِـــــكيّا
وعليٌّ من كسبِ كفّيه قد أعْـ   ـتقَ ألفـــا بذاك كـــانَ حَريّا
وله الحكمُ من سليمانَ إذ كا   نَ علـــــيٌّ مُـــوفّقا ألمَعيّا
كسُليمانَ في الغُنيماتِ والحَرْ   ثِ بفهمٍ أمضى به المقْضيّا [١٨]

فمن داود يأخذ صفة القتال بين يدي النبي محمد (ص) كما فعل داود حين قتل جالوت بين يدي طالوت، وعلي هو الذي فرق الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة بقتله فارسهم عمرو بن عبد ود العامري، فضلا عن أن داود كان يصنع الدروع بيديه، وقد كان الإمام يكسب قوته بيديه أيضا.

أما سليمان(ع) فقد أخذ الشاعر منه صفة الإصابة في الحكم، ليصل بها إلى شهرة الإمام بإصابة القضاء الذي وفقه الله إليه بدعاء النبي (ص) ، ففاق فيه غيره من الصحابة .

ولعل أكثر المواطن التي وقف عندها الشاعر في موضوع الشبه إنما كانت بين الإمام علي والنبي موسى وأخيه هارون (عليهم السلام)؛وذلك لغنى حياة هذا النبي الكريم الذي كلمه الله، وقد استغرقت قصته من القرآن الكريم ما فاق قصص الأنبياء الآخرين[١٩] ،وتكررت تفصيلاتها

في سور مختلفة ، ثم أنه قريب العهد من نبوة محمد (ص) ، وعلمه ما زال متداولا لدى اليهود الذين يجدون اسم النبي الأمي مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

كـــــــان فيه من الكليمِ خِلالٌ   لـــــم يكنْ عنكَ عِلْمُها مَطْويّا

كلّمَ اللهُ ليلةَ الطورِ موســـــى   واصطفـــــاهُ على الأنامِ نَجيّا

وأبان النّبيُّ فــــــي ليلةِ الطا   ئفِ أنّ الإلـــــه ناجى عليّا (٢٠)

تبدأ صفة التشابه الأولى بتكليم الله موسى(ع) ، وفي التكليم معنى النجوى، وهو المعنى الذي انصرف إليه جهد الشاعر؛ ذلك أن الله لم يكلم عليا، ولكن النبي انتجاه في ليلة الطائف ليبشره بما أخبر الله به من المقام الرفيع للإمام ، والقرب من الله في الدنيا والآخرة، وبهذا وجد الشاعر وجه الشبه بين تكليم الله موسى مباشرة ،وتكليم النبي محمد (ص) بشأن علي بطريق النجوى ، أي بالطريق غير المباشر .

أما الصفة الأخرى فهي تزويج النبي شعيب (ع) إحدى ابنتيه موسى بعد أن استأجره بضع سنين، فأتم أبعد الأجلين وهو عشر .

وكما آجرَ الكليمَ شُعيْبا   نفسهُ فاصْطفى فتىً عبقريّا

أجْرَهُ أنْ يزُفّ إنْ تمّمَ الميـ   ـــقات إحــــدى ابنتيه منهُ هديّا

فوفى بالأتّم مــــن أجليهِ   ورآه بــــــها مليّا وفــــيّا

وكذاك الإمامُ كان مُذ الهجـ   ـرةِ مُستاجرا أخــــــاهُ عــــليّا

فوفى في سنينٍ عشرٍ بما وا   عدَ عفوا ولــــمْ يَجدْهُ عصــــيّا

فحباهُ فــــــي خِيرَةِ النّسـ   ـوانِ عرسا وجُـــــنّة وصفيّا (٢١)

أما الإمام فقد حظي بتزويجه من فاطمة بنت الرسول (ص) بعد أن كان مستأجرا للنبي بصفة المؤاخاة التي عقدها النبي له منذ الهجرة، ويبدو أن في قول الشاعر : (وكذاك الإمام كان مذ الهجرة مستأجرا أخاه عليا) إشكالا، ولعل الصواب أن يقول : (وكذاك النبي ...) فيكون مِستأجرا (بكسر الجيم) اسم فاعل مفعوله (أخاه عليا) ليستقيم المعنى من دون لبس .

ويثير قول الشاعر: (فوفى في سنين عشر ...) إشكالا تاريخيا؛إذ جعل الشاعر تزويج الإمام بعد أن وفى بعشر سنين منذ الهجرة، في حين كان تزويج الإمام أول الهجرة لا يجاوز سنتها الثانية .

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ميدان جهاد الإمام - ولاسيما من بعد الخلافة -بدءا بالخوارج ،مخالفا بذلك التسلسل التاريخي ، مشيرا فيها إلى فعل هؤلاء الذين مرقوا من الدين، مصداقا لما ورد فيهم من حديث النبي(٢٢) ، وقتلهم المسلمين الأبرياء،ثم يشير إلى واقعة النهروان فيذكر بعض أعلامهم الذين كان قتلهم مصداقا لما أخبر به النبي عليا وأصحابه من قبل بما سيكون، ومن هؤلاء عبد الله بن وهب الراسبي ، وذو الثدية الذي كان قتله آية صدق الإمام ، جعلت الأصحاب يبحثون عنه بين القتلى، فلم يجدوه حتى استخرجه الإمام بنفسه ، فكبر وهو يقول : والله ما كَذّبت ولا كُذّبت (٢٣) ، وشهد له الصحابة بذلك .

ولهُ منهُ أنـــــــــهُ قتلَ المُـ	ـرّاقَ إذ خالفوا الطّريقَ السويّا
وكذاكَ الإمـــامُ بالنّهْرِ أفنى	من عصاهُ وطـــاوعَ الرّاسبيّا
فأبادَ السُّراةَ طعنا وضربا	والشّقِي الـــذي استناط الثديّا
وله منه عَفْوهُ عن أُنـــــــاسٍ	عكفـــــوا يعبدونَ عِجْلا حَليّا
حَرَقَ العِجْلَ ثمّ منّ عليهم	إذ أنابوا وامْـــــهَلَ السّامريّا
وعليٌّ فقد عفا عن أنــــــاسٍ	شَرَعوا نحوهُ القنا الزّاعبيّا
يوم ساروا إليه بالجَملِ الأو	رقِ قد جلّلَ الضُبى والقنيّا
ففناهُم بسيـفهِ ثـــــم نالوا	صفْحهُ بعدْ عقْرِهِ الأرْحَبيّا
وعفا عَنْـــهم وقالَ نُصِرْنــــا	ورعى الآخرونَ مَرْعىً وَبيّا (٢٤)

ثم يناظر الشاعر من بين أحداث واقعة الجمل بين الجمل الأورق الذي استمات الناس من حوله، وبين العجل الذي صنعه السامري لأصحاب موسى في أثناء غيابه فعبدوه، وكان له خوار كما كان للجمل الأورق ذلك الخوار، وكأن تاريخ الناكثين يكرر نفسه .

لكن الشاعر يلتفت إلى نقطة أخرى في هذا السياق، هي صفة العفو الذي أصدره الإمام بحق هؤلاء الناكثين الذين شهروا سيف القتال بوجهه،مكتفيا بنصره بعد إسقاط ذلك الجمل اللعين، وتفرق الناس من حوله، وكان يمكن أن يوقع بهؤلاء حتى يقضي عليهم قضاء مبرما .

ويقف الشاعر عند إحدى مناقب علي ومكرماته تلك التي تشبه في ناحية منها ما جرى لموسى من قبل، وهي معجزة انباط الماء من جوف الصحراء القاحلة، فالآية الكريمة التي تشير بوضوح إلى هذه المحطة من سيرة موسى مع قومه هي قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ)[٢٥] ،أما الحادثة مع علي فقد جرت في أثناء مسيره إلى صفين وسط الصحراء من جهة سواد الكوفة؛ إذ عطش الناس فأمرهم الإمام بقلب صخرة أفاضت عليهم بالماء حتى اكتفوا، وحين بعد بهم المسير أعاد علي بعضهم إلى المكان فلم يجدوا له أثرا،غير أنهم قد سألوا أهل دير قريب منه،وهؤلاء قد استدلوا على وصاية علي (ع) ؛ إذ لا يقلب الصخرة عندهم إلا نبي أو وصي نبي ، حتى نزل الراهب من ديره ليؤمن بالإسلام دينا .

وله منه إذ علا الحَجَرَ الصّلْـ ... ـدَ بضربٍ فانبط الماءَ ريّا
فجرى بالعيونِ عشرا وثنتيـ ... ـنِ وأتّى لكُلّ عَــــيْنٍ أتيا
واخو المصطفى الذي قلبَ الصّخـ ... ـرةَ عن مَشْربٍ رَاوهُ رَويّا
بعد أنْ رامَ قَلْبها الجيشُ جَمْعا ... فرأُوْهُ صَعْبا عـــليهم أبيّا
يوْمَ نادى يا راهبَ القاعِ بالشا ... هقِ هلْ مَشْربٌ فقالَ بَـــدِيّا
مـــن لنا بالمياهِ من بطنِ قاعٍ ... قرَقوْسٍ مَرْتٍ تجَاوَرَ فِيّا
ليس من دون فرسخينِ شرابٌ ... فاتبعوا النّصَ خيْفَقا خيْطَفِيّا
فاجتلى الصخرةَ الإمامُ فكانت ... كُرَةَ الصّولجانِ تُدْحــى دَحِيّا
فسقى الجيشَ ثمّ عادتْ كأنْ لمْ ... تــــرَ عَيْنٌ بِقُرْبِــها إنــسيّا
فأتاه من قوْسِهِ القسُّ يحكي ... هاويا صَقَرَ قانِصٍ مَضْرَحِيّا
قائلا للّتي تَبيّنْتُ فـــي الإنـــ ... ـجيلِ إذْ كُنْــتُ راهِبا ذِمّيّا

إنها الصّخْرَةَ التي لا تَرى العَيـ ـــــــنُ مُطيقا لِقَلْبِـــها آدَميّا

غَيْرَ من كانَ في الأنامِ نَبيّا أو وَصِيّا في العِلْمِ يقفُو النّبيّا

وأراك الإمامَ فابْسِطْ ليَ الكَـ ـــفّ أكُنْ مُسْلِما حَنيفا تقيّا

فـــهداهُ بمنّـــةِ اللهِ للحَـــقّ وقـــد كـــانَ هادِيا مَهْديّا

وحديثُ الفراتِ والبحرِ قد حا زَ لهُ الشّبه خـــالِصا وَأصِيّا

إذ أتتهُ حِيتانُهُ شُرّعا تـــدْ عو إلـــهَ الوَرَى العليمَ العَليّا (٢٦)

ويبدو أن هذه القصة قد حظيت باهتمام كبير ، فهي معجزة واضحة شهدها أناس كثر، بل جيش كبير، وقادت إلى ترك الراهب صومعته لما وجده عنده مكتوبا ، وكان الفعل مصداقا لذلك المكتوب، وما دام الأمر متعلقا بمعجزة موضوعها الماء، فإن الشاعر يسير به تداعي الأفكار وحسن الربط بينهما إلى معجزة أخرى تلتقي مع ما كان لموسى (ع) أيضا وهي جنوح حيتان النهر والبحر؛إذ تأتي إليه شرعا .

ثم يعرج الشاعر على الشبه بين هارون أخي موسى والإمام علي من وجوه عدة أولها : السكنى في المسجد وفيه مكرمة إبقاء باب علي مشرعا حين أمر النبي بسد أبواب غيره، فضلا عن النداء السماوي يوم بدر(٢٧) .

ولهُ من أخيهِ هارونَ نعْتٌ حازَ فَخْرا بــفضْلهِ شَرْمَخيّا

حازَ شِبْها له بِسُكْناهُ في المَسْـ ـجدِ حتْما مِـــنْ رَبّه مَقْضيّا

بابُهُ في شُرُوعِ بابِ رَسُولِ اللهِ إذْ كـــانَ مُسْتخِصّا حَضِيّا

حِيْنَ سُدّتْ أبوابُهُم وهو يَغْشَى بابَهُ شارِعَـــــــا مُنِيفا مَهِيّا

ما حبا اللهُ أهْلَ بَدْرٍ وأحْـــدٍ مِــــثْلَ هذا ولا حَبا عَبْقرِيّا (٢٨)

أما الثاني : فخلافة هارون موسى، وكذلك خلافة علي النبي،وقد صنع القوم بعلي ما صنعوه بهارون؛إذ بيتوا أمر قتله ، ولكن الله أنجاه وأخزاهم .

إنّ هارونَ كان يخلِفُ مُوسى وكذا اسْتَخْلَفَ النّبيَّ الوَصِيّا

وكما اسْتضْعَفَ القبائلُ هارُو نَ وراموا لهُ الحِمَامَ الوَحِـيّا

نَصَبُوا للوَصِيِّ كي يَقْتِلُــوهُ ولقدْ كانَ ذا مَحَالٍ قَـــوِيّا
لم يَعِبْ ما أتَى أولئِكَ هــارُو نَ ولا هَؤلاءِ عابُوا الوَصِيّا
إنّما العَيْبُ للذي تَرَكَ الحــ ـقّ عِنَادا وكـــانَ عنْهُ بَطِيّا (٢٩)

والوجه الثالث هو أخوة موسى لهارون وأخوة النبي لعلي، فهي أخوة صادقة لا ادعاء فيها،ومن هذا ينطلق الشاعر إلى أسماء أولاد الإمام : شُبَّر وشُبيْر ومُشْبَر وهي أسماء أولاد هارون،غير أن النبي قد نقلها إلى اللسان العربي فكانت : حسنا ، وحسينا ، ومحسنا الذي أسقط جنينا فاستشهد .

وأخُو المُصْطفى كما كانَ هارُونَ أخـــا لابْنِ أُمّهِ لا دَعِيّا
وكـــذاكَ وِلْدُهُ لأوْلادِ هـــارُو نَ شَقيقِ الكَليمِ كانوا سَمِيّا
لا يَـــحِلُّ اسْـــمِ شبّرٍ وشُبَيْرٍ وأخِيْهِم مُشْبَرٍ ظَهْـــرِيّا (٣٠)

ويأخذ الشاعر من النبي شعيب (ع) صفة الخطابة ، فقد كان علي خطيب فهر بل العرب جميعا في ماضيها وحاضرها، قائلا :

وَشُعيْبٌ كانَ الخَطيبَ إذا ما حَضَــرَ القوْمُ مَحْــفَلا أو نَدِيّا
وعليٌّ خَطيْبُ فِهْرٍ إذا المَنْــ ـطِقُ أعْيَـــى المُفَوّه اللــوذَعِيّا
مِصْقَعٌ ذُو كَياسَةٍ يَكْشِفُ الهَمّ إذا الأمْـــــرُ جاءَهُم صَيْلَمِيّا
يرْشِفونَ الثّمَادَ من نُطَفِ العِلْـ ـمِ ويَــمْتاح بَحْـــرهُ اللّجِّــيّا
يُجْتَنَى العِلْمُ منهُ في كلِّ حِينٍ دانِيــا مُجْــتَنَاهُ غَضّـــا جَنِيّا
بَذّ فَضْلَ المُهاجرينَ جَــمِيعا مِثْلما بَـــذّتِ البِحَارُ السَّرِيّا (٣١)

وصفة الخطابة هنا لا تقتصر على القدرة على تدبيج الكلام وحده ـ كما هو شأن بعض الخطباء المشهورين ـ ولكن تنتظم في سلك العلم الذي حُبي به الإمام ففاق غيره من مهاجرين وأنصار وغلبهم في هذا المضمار (٣٢) ، وهو ما يركز عليه الشاعر ، فيشبه فضل الإمام على غيره بفضل البحار على النهر الصغير .

أما التقاء الإمام بيوشع (ع) فيأتي من باب السبق إلى الإيمان والصلاة خلف النبي (ص)؛ إذ لم يصلّ أحد قبله أو معه ، قائلا :

وَلَهُ من صِفاتِ يُــوْشَعَ عندي ... رُتَبٌ لـــم أكُـــنْ لـــهُنّ نَسِيّا
كان هذا لما دعا الناسَ مُوسى ... سَابِقا قادِحا زِنَـــــادا وَرِيّا
وعـــــليٌّ قبل البَرِيّةِ صَلّى ... خاضِعا حَيْثُ لا يُعَـــايَنُ رَيّا
كان سِبْقا مَــعَ النّبيّ يصلّي ... ثانِــيَ اثنينِ ليس يخْشى ثَوِيّا (٣٣)

وهي صلاة تضم إلى جانب السبق الزمني عنصر التحدي والتعرض للهلاك ؛ ولذلك يشير الشاعر إلى هذه المخاطرة المقترنة بفضل السبق والفوز به من دون الآخرين .

وأما فضيلة ردّ الشمس للإمام بعد غروبها فمستخلصة من الشبه لما جرى لذي النون (يونس) صاحب الحوت الذي شغل بقتال عدوه حتى فاته وقت الصلاة، فتفضل عليه الله برد الشمس إكراما .

وابْنُ نونٍ لمّا تشاغَـــلَ بالقتـ ... ـلِ لمـــن كـــان جاحِدا ثِنْويّا
رُدّتِ الشّمسُ بعْدَما حازَها الغَرْ ... بُ فألفى وقْتَ الصّلاة خَـــلِيّا
وعليٌّ إذ نال رأسَ رَسُولِ اللهِ ... مِـــنْ حِجْـــرِهِ وِسادا طيّا
إذ يَخَالُ النّبيَّ لمّا أتـــاهُ الـ ... ـوحْيُ مُغْمىً عـــليه مَغْشيّا
فتراخَتْ عنهُ الصّلاةُ ولم يُو ... قِظْهُ إذ كانَ سُخْطُهُ مَخْــشيّا
فرآهُ لِفوْتِها قَـــلِقَ القــلْـ ... ـبِ كعانٍ في الأسْر يُزْجى سَبيّا
فدعـــا رَبّهُ فأنْجَزَهُ الميْـ ... ـعادَ مَــنْ كـــانَ وعْدُهُ مأتيّا
قال هذا أخِـــي بِحاجَة بيّ ... لـــم يَـــزَلْ شَطْرُ يوْمِهِ معْنيّا
فارْدُدِ الشّمْسَ كي يُصلّي في الوقـ ... ـــتِ فعادَ العَشِيّ بعد مُضيّا (٣٤)

وهكذا كان الأمر مع علي حين أغفى النبي الكريم في حجره كأنه مغشي عليه ؛ إذ كان يتلقى الوحي حتى فات وقت صلاة العصر، فدعا النبي (ص) ربه فرد الشمس إكراما لعلي ، ولكن

الشاعر يقتصر على هذه المرّة في رد الشمس ولم يشر إلى المرّة الأخرى التي وقعت في أثناء خلافته بمدينة بابل .

ويقرن الشاعر بين الإمام وياسين صاحب عيسى في صفة حفظ العهد والأمانة للنبي وهو النهج الذي التزمه الإمام في سائر حياته مع النبي وبعد وفاته .

وَهُوَ في سبقهِ كصاحبِ ياسيـ — ـنَ لعيسى وقد حَذَاهُ حَــذِيّا

لـــم يُضيّعْ عهد النّبيّ ولكنْ — كـانَ بَتْلا بِذِمّتيْــهِ حَــمِيّا

وكـــما قامَ بالأمانةِ ذو الكِفْـ — ـلِ وَجَدْنــا إمامَــنا الهاشِميّا

لـــم يُضيّعْ عهد النّبيّ ولكنْ — كــــانَ بَتْـــــلا بِذِمّتيْهِ حميّا (٣٥)

وهنا يأتي ذكر النبي ذي الكفل في السياق نفسه ،مع ملاحظة تكرار البيت (لم يضيّعْ عهد النبيّ ...) ولعله من أخطاء الطباعة .

ويقتصر الشاعر على صفتين من صفات زكريا (ع) أشبهه الإمام فيهما وهما : كفالة مريم وقد حبا الله الإمام بالزهراء ؛إذ ارتضاه لها وارتضاها له ،أما الأخرى فرؤيته رزق الله عندها كلما دخل عليها المحراب،فقال : من أين لك هذا؟ قالت : هو من عند الله ، وفي قصة الرزق عند الزهراء ما حباها الله به من طعام الجنة بعد جدب ومسغبة .

وله خلّتانِ من زَكَـــــريّا — فَهُما غاضتا الحسودَ الغـــوِيّا

كفّل اللهُ ذاكَ مريمَ إذ كـــا — نَ تقيّا وكـــــانَ بَــــــرّا صَفِيّا

ورأى عندها وقد دخلَ المِحْـ — ـرَابَ مـــن ذي الجَلالِ رِزْقا هَنِيّا

وكذا كفّلَ الإلـــــــــهُ عليّا — خِـــيرَةَ اللهِ وارْتَضــــــــاهُ كَفيّا

ورأى جَفْنَةً تفورُ لَـــــديْها — من طعامِ الجِّنـــانَ لَحْما طَـــرِيّا

خِيْرَةٌ بِنْتُ خِيرَةٍ رضيَ الّـ — ـهُ لها الخَـــــــيْرَ والإمامَ رَضِيّا (٣٦)

كما يشير الشاعر إلى النبي يحيى (ع) من ناحية مصرعه وشأن المرأة فيه ،ليعرج إلى ذكر مصرع الإمام .

وله مِنْ صِفاتِ يَحْيى مَحَلٌّ ... لـــــم أُغادِرْهُ مُهْمَــــلا مَنْسِيّا
إنّ رِجْسا من النّساء بغّيا ... كفّلَــتْ قتـــلَهُ كَـــفُورا شَقِيّا
وكذاكَ ابْنَ مُلْجَمٍ فرَضَ الّـ ... ــهُ لهُ اللعْنَ بـُـــكْرة وعَشِيّا
قتلَ السّيّدَ الإمامَ قسيمَ الـ ... ــــــنارِ خَتلا كيما يَنالُ بَغِيّا
فَتَنتْهُ قَطَامُ أبْـــــعَدَهُ الّـ ... ـهُ فأمْسى في النّارِ يَهْوى هَوِيّا (٣٧)

فإذا كان للبغي الفعل المؤثر في مقتل النبي يحيى(ع) على يد جبار شقي ، فإن مصرع الإمام كذلك كان على يد أشقى الناس (ابن ملجم) ، وقد كان للمرأة (قطام) شأن لا ينكر في هذه الجريمة .

ومن النبي أيوب الصابر المحتسب ينطلق الشاعر إلى ذكر ما قاساه الإمام من كثرة الجراحات والطعن في حياته في المعارك التي خاضها متصلة .

وله من عَزَاءِ أيّوبَ والصّبْـ ... ـرَ نَصِيبٌ ما كانَ نزْرا رَزِيّا
كان للطَعْنِ والجراحاتِ في اللّـ ... ـهِ صَبورا وفي الحُرُوبِ جَرِيّا
كلّما قَـــــاسَ ضربةُ منه آسٍ ... كانَ مِحْرافُه لأُخْرَى حريّا (٣٨)

فشبّه ما تعرض له الإمام من تلك الطعنات والضربات والجراحات الكثيرة بما قاساه أيوب (ع) صابرا حتى أكرمه الله في الدنيا والآخرة .

ويقف الشاعر عند أوجه الشبه بين النبي عيسى(ع) والإمام علي (ع) وذلك من جهة اختلاف الناس فيهما بين غالٍ وقالٍ .

وله من مراتبِ الرّوحِ عيسى ... رُتَبٌ زادَتِ الوَصِيّ مزيّا
ضَلّ فيهِ ضَرْبانِ غالٍ وقالٍ ... لم يَسِيرا لهُ الطريقَ السّويّا
مثلما ضَلّ في ابنِ مريمَ ضَرْبا ... نِ من المُسْرفينَ جَهْلا وغيّا
قال قـــــــومٌ هو الإله وقومٌ ... جَعَلـــــــوهُ مُفَضّلا مقْصيّا
هلكَ المُفرطانِ فيـــــه عدُوٌّ ... ومُحِبٌّ يُصيبُـــــــهُ غلْويّا

ولقد قالها لمولاي قَـــــوْمٌ ... ورأوا نَــــــارَهُ عليها صِلِيّا

إذ دعا قنبرا بأنْ أجّجِ الـــــ ... ـنّارَ فأنّي سَمِعْتُ نُكْـــرَا فَرِيّا (٣٩)

فكما ألّه أناس عيسى أو قالوا: هو ابن الله جهلا وكفرا، كذلك غلا قوم بالإمام فأسرفوا في حبه حتى قالوا بإلوهيته، فعاقبهم بالإحراق بالنار، فما زادهم ذلك إلا إسرافا وكفرا ، فقالوا : لا يحرق بالنار إلا اله .

وبمقابل هؤلاء الغلاة ظهر القالون الذين خفضوا من شأن الإمام علي ، بل نصبوا له العدوان بغضا وحسدا، وكلا الفريقين قد جانب الحق فيما فعل .

ثم يختم الشاعر أوجه الشبه التي بدأها بآدم ، بالنبي محمد (ص) كما هو شأن الرسالة؛إذ نراه يرصد الصفات الجامعة بين النبي والإمام، ولا غرابة في هذا ؛إذ هما من شجر واحد، فرعا شجرة باسقة هي شجرة النبوة التي غرسها الله ببعثه آدم (ع) ، وظلت جذورها ضاربة إلى عهد خاتم المرسلين .

كانَ مِثلَ النّبيّ زُهْدا وعِلْما ... وسَريعا إلـــى الوغا أحْوَذيّا

فَرعُ عُودِهِ أغصَانُه حسناه ... زاكِيا غَرْسُ أصْلِـهِ أبطحيّا

كـــانَ للأمّةِ الضعيفةِ كَهْفا ... كافِـــلا إنْ ضَاعَ رَاعٍ رَعِيّا

حَربا فـــي صَلاحِها وسِواهُ ... فـــي سَمُودٍ يُروّضُ الأرحَبيّا

كانَ في الّسّلمِ عابدا ذا اجْتهادٍ ... ولدى الحَرْبِ ضَيْغَمــا قَسْوَريّا

لا فخورٌ يجـــرُّ أرْدِيَة الخا ... لِ ولا عـــاجِــزا ولا جَبْريّا

كان صدّيقَها وفاروقَها الأعْـ ... ـظمِ حــــــقّا والسابقَ الأوّليّا

وأميرا للمؤمنينَ ويَعْسُوبــا ... لـــهُمْ يَنْهَـــجُ الصّراطَ السّويّا

كــــــانَ للهِ والرسولِ مُحِبّا ... وحَبيبــا يُــعدّ خِـــــصّيصيّا

وهو الحِبْرُ والفقيهُ لدى الفُـ ... ـيا ويـــومَ الهَياجِ يفري الفَريّا

من وقاه فرارهُ فهو الكــــ ... ـرّارُ إنْ كافـــحَ الكميّ الكَمِيّا

نَسَخَ السّابقينَ إذ سارَ بالرا　　يةِ فـــي يَـــوْمِ خيبرٍ تَقدُمِيّا [٤٠]

وهنا يأتي التشبيه صريحا بقوله : كان مثل النبي زهدا وعلما ،وهو حصن الأمة وكهفها كما كان النبي لها، ويجمع من صفات النبي جلها إلا النبوة التي حصرها في محمد (ص) دون سواه ، وبذلك فاق الإمام أقرانه فهو فاروق الأمة وصدّيقها الأكبر.

ولا شك في أن استقصاء الشبه بين الأنبياء والإمام لم يكن كافيا ليأتي الشاعر على كل خصال الإمام وفضائله ومناقبه ؛لذلك احتاج الأمر لديه إلى أبيات أخر ليوفي هذه الحاجة حقها ومنها : عهد النبي بالموالاة يوم (غدير خمّ) في اجتماع المسلمين المشهور في ذلك المقام بعد رجوعهم من الحج .

لـــم يكُنْ أمرُهُ بدوحاتِ خمٍّ　　مُشْكِلا عـــن سبيلهِ مَلويّا

إنّ عَهْدَ النّبيّ فـــي ثَقَلَيْهِ　　حُجّةٌ كُنتَ عن سِـــواها غنيّا

نَصَبَ المرتضى لهم في مقامٍ　　لم يكن خامِلاً هُنـــاك دَنيّا

عَلَمَا قائِما كـــما صَدَعَ البد　　رُ لِتَـــمٍّ دجنّة أو دَجِيّا

قال هذا مولىً لمن كُنْتُ مولا　　هُ جِهارا يقولُـــها جَهْوَريّا

والِ يا ربِّ منْ يواليه وانصُرْ　　هُ وعادِ الذي يُـــعادي الوصيّا

إنّ هذا الدُّعا لمن يتعَـــدّى　　راعيا في الأنـــامِ أمْ مَرْعيّا

لا يُبالي أماتَ موْتَ يـــهودٍ　　منْ قلاهُ أو مـــاتَ نصْرانيّا [٤١]

لقد عرج الشاعر على بيان تلك الواقعة،مشيرا إلى تفصيلاتها ، وما جرى فيها من تنصيب الإمام أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول ربّ العالمين ،ثم ما ورد في ذكرها من أحاديث تؤكد فحوى تلك الواقعة ولاسيما حديث : من كنت مولاه ... ، وحديث : إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما ... ، فضلا عن إجماع المسلمين على التسليم بما شهدوه في وقته .

على أن الشاعر لا يكتفي بما أورده من مناقب الإمام علي ؛لذا يورد حادثة الطائر المشوي الذي أنزله الله تعالى على نبيه في المسجد، فدعا النبي ربه أن يشركه في أكله أحب الناس إليه فكان علي (ع) .

كان سُؤالُ النّبيّ لمّا تمنـــــى | حِيْنَ أهدوهُ طائِرا مَشـــويّا
إذ دعا اللهَ أنْ يسوقَ أحبّ الـ | ـخلْقَ طُرّا إليهِ سَوْقا وَحَـــيّا
فإذا بالوَصيّ قد قـــرَعَ البا | بَ يُريدُ السّلامَ رَبّـــــــانيّا
فثناهُ عن الدُّخُولِ مـــرارا | (أنسٌ) حين لم يكنْ خزْرَجيّا
وَدَّ خَيْرا لقومهِ وأبى الرّحـ | مانُ إلا إمامَنَـــــــا الطّالبيّا [٤٢]

وبعد هذا يأتي الشاعر إلى بيان مقام الإمام الرفيع في الأمة ،قائلا :

كان كالعالم الذي أدّ موسى | عِلْمهُ إذ رأى البيانَ ضَـــويّا [٤٣]

فنراه يشبهه بعالم بني إسرائيل الذي لم يستطع موسى معه صبرا، مستندا في ذلك إلى حديث ابن عباس [٤٤] .

وتستمر الأبيات الأخيرة في بيان فضائل الإمام ومناقبه .

كانَ للمؤمنينَ حـــــقا أمِيرا | لـــــــو أطاعُوا نبينا الأميّا
قَتل الناكِثَ المُجازِفَ والقـــا | سِطَ جَهْرا والمـــارِقَ الخارجيّا [٤٥]

كما يعرج الشاعر إلى ذكر حادثة الكساء الذي ضمّ النبي وآل بيته وهم : علي وفاطمة وابنيهما، وبهم باهل النبي نصارى نجران ، ثم يختم الشاعر قصيدته بالسلام والتحية .

وإذا ارْتاشَ والبتولِ ونَجْلا | هُ مع المُصْطفى الكِسا الحَضْرميّا
وبهمْ بَاهَلَ النّبيُّ فحازوا | شَرَفا يتْرك الرّقـــابَ حنيّا
فعليهمْ أزْكى وأذكى صَلاةٍ | وسلامٍ يَقْفُو الزكيّا الذكـــيّا
فعليهِ السّلام ما غنّتِ الطيـ | ـر وناحتْ عـلى الغُصُونِ بُكيّا [٤٦]

ـ عرض تحليلي موجز للخصائص الفنية :

اعتمد الشعر العربي منذ نشأته أدوات فنية أمكنته من التعبير المؤثر في متلقيه (٤٧) ، فلم يقتصر في ذلك التأثير على خواص الموضوع وحده،مهما كان هذا الموضوع ساميا في محتواه،أو خيرا في غايته؛ بسبب من عرض الموضوع وحده من دون إحاطته بمقومات الأداء الفني المحكم لن يكون مهما إلا إذا اقترن بما يمكّن له من التأثير والتمكن من نفوس المتلقين ،وذلك هو الأداء الفني الذي يمكن رصد أبرز سماته في قصيدة المفجّع البصري بالنقاط الآتية :

١ـ تجنب الشاعر إتباع أنماط البناء التقليدي للقصيدة العربية التي انقسمت في بنائها على أقسام معروفة هي : المقدمة بأنواعها المختلفة (طللية، غزلية،....) ، والرحلة، ثم الغرض الرئيس مدحا أو رثاء أو سواهما (٤٨) . فقد بدأ الشاعر قصيدته بتوجيه الخطاب إلى لائم مفترض، أو حقيقي ،هو مجموع المناوئين لحب آل البيت (ع) مهما تعددت درجات عدائهم .

إن طريقة توجيه الخطاب إلى لائم مفترض هي طريقة تقليدية أيضا قد عرفتها القصيدة العربية، ويمكن أن نجد لها نماذج واضحة لدى بعض الشعراء الصعاليك (٤٩) ،وكذلك لدى الشعراء الفرسان ، والشعراء الأجواد مثل حاتم الطائي المعروف بجوده وكرمه؛إذ نراه يجرد من خياله ـ وربما حقيقة أحيانا ـ امرأة تأخذ دور اللائمة على كثرة الإنفاق ، ليجعلها وسيلة تعبيرية فنية يمرر من خلالها أفكاره في حكمة الجود والكرم (٥٠) ، فضلا عن إظهار حبه وتفوقه على سواه في هذه الخصلة الكريمة التي تمده بشعور تفوق الذات وحضورها المتميز في مجتمع يقدر هذه الخصلة هو المجتمع البدوي .

أما المفجّع البصري فقد جرد لائما ، وهذا أمر يفي بغرض الشاعر؛لأنه في موقع الحجاج والمكافحة الفكرية ضد من ينصب لآل البيت ومحبيهم العداء،ولم يستغرق ذلك منه سوى البيتين الأولين،بدأ شطرهما الأول بالخطاب : أيها ، والشطر الثاني من البيت نفسه بفعل الأمر : قم، والشطر الأول من البيت الثاني بالاستفهام الإنكاري، والشطر الثاني من البيت نفسه ـ وإن كان مدورا ـ بالدعاء بالسلب،ليتفرغ بعدها إلى الشأن الذي نظمت من أجله القصيدة، وهو يرد بأسلوب الإخبار باستعمال الفعل (أشبه) ، وفيه يستغرق مراحل حياة الإمام علي (ع) تنازليا من الكهولة إلى الطفولة (أشبه الأنبياء كهلا وزولا ...) .

٢ـ جعل الشاعر من قصيدته قطعة واحدة متماسكة من حيث الفكرة والأسلوب والبناء،وليس فيها إلا الانتقال من استقصاء تشابه صفات نبي إلى آخر مع الإمام، متبعا في الوقت نفسه تسلسلا

تاريخيا نازلا من آدم أول الأنبياء والبشر إلى محمد خاتم الأنبياء وسيد البشر، وهذا ما منح القصيدة نوعا من الوحدة الموضوعية والتماسك والانسجام على مستوى النص ،مما يجعل القارئ يعيش في لحظة فكرية واحدة مرجعيتها الرئيسة صفات الإمام وخصاله وفضائله ومناقبه التي نجد لها أثرا في مسيرة النبوة على مدى تاريخ البشرية ، ليخلص الشاعر من ذلك إلى مدى عظم هذه الشخصية التي استجمعت خصال تلك المسيرة الطويلة ، بل زادت عليها، وهذا ما تفسره الأبيات الأخيرة من القصيدة .

٣ـ اعتماد القصيدة مبدأ الحجاج الفكري : فقد كان شأن القصيدة أن تورد صفات التشابه مع الأنبياء لغرض إبراز هذه الصفات ومن ثم جعلها مقدمة فكرية قاطعة ، مستندة إلى مصادر لا يمكن دحضها أو التعريض بمصداقيتها .

وإذا كان اعتماد الفكر في القصيدة يبعد عنها هيمنة العاطفة التي عرف بها أغلب الشعر العربي، فإن الحاجة هي التي دفعت لذلك،فالسياق العام الذي أحاط بالشاعر وقصيدته هو سياق قائم على الجدل الفكري، واستعمال أدوات علم الكلام في بيئة علمية فكرية، ساد فيها هذا النمط من إبراز الحجة ونقيضها؛ ولذلك تبدو العاطفة وحدها غير قادرة على أداء مهمة إثبات القوة للدليل والحجة، على أن مجال العاطفة له أثره أيضا؛إذ لا يمكن للشاعر أن يتخلى عنها في أية لحظة، فالعاطفة مخفية في نسق القصيدة المضمر،وإلا فما الدافع ليكد الشاعر ذهنه ويبذل كلّ هذا الجهد إن لم يكن قد اتجه عاطفيا وفكريا نحو قضيته .

٤ـ اعتماد فكرة التشابه : إن اعتماد القصيدة فكرة التشابه والتشبيه هي بحد ذاتها فكرة جريئة لا نكاد نظن أن شاعرا ما قد سبق إليها المفجّع البصري بمثل هذا التفصيل ، ولا يقتصر الأمر في هذه الجرأة على الحصيلة العلمية وضبط مكوناتها بإحصاء أوجه الشبه التي تدل على علم واطلاع غزيرين حسب،ولكن على الجوانب الفنية ذات الإمكانات النظمية العالية التي أحالت ذلك الموضوع العلمي الرصين ، وتلك الأفكار الجدلية الناتئة إلى سياق النظم الشعري الفني الذي امتلك صفات القوة والرصانة من حيث الانسجام اللغوي عامة، ومن حيث طرائق التركيب والتحول بين الصفات والأسماء والشخصيات .

لقد استعمل الشاعر في إحكام بناء قصيدته مبدأ (تداعي المعاني) الذي يمهد بذكر كلمة أو شخصية إلى ذكر غيرها ثم ينتقل إلى التفصيل فيها، كما صنع مع كلمة (الأسباط) مثلا .

٥ـ اعتماد الأسلوب الإخباري : ونعني به عرض أخبار الماضين ، فالأنبياء الذين بحث الشاعر عن صفاتهم هم من الماضين السابقين، وعرض أخبارهم يأتي بصيغة الزمن الماضي الذي غلب

عليه الفعل (كان)، وهنا علينا أن نميز بين أسلوب الخبر الذي اعتمده الشاعر، وبين الأسلوب السردي الذي تجنبه الشاعر؛لأنه لا يخدم غرضه الفكري؛إذ يكتفي بالإشارة وليس التفصيل؛إذ لا يسع المقام ذلك، ويفترض هذا الأسلوب من الشاعر الدقة والفحص والتحري، وفي الوقت نفسه البحث عن المشهور من أخبار الأنبياء ، لكي لا تكون محل جدل أو رد فكري، ولكي تفعل فعلها في التأثير من حيث إقامة الحجة القاطعة التي لا يتسرب إلى فحواها الشك .

٦ـ النواحي الإيقاعية : استعمل الشاعر بحر الخفيف وزنا لقصيدته لأسباب منها : خفة هذا البحر في الأسماع،وكثرة حركاته [٥١] ، والقدرة في النظم عليه؛ إذ إن الشاعر أمام كم من الأسماء والصفات التي قد يصعب إدراجها في أبحر أخرى ، ففي هذا البحر سهولة ومطاوعة للنظم تمكن الشاعر من الاستمرار في بناء قصيدة طويلة كهذه التي بلغت مئة وستين بيتا .

كذلك استعمل التنويع في التفعيلات بشكل واضح مفيدا في ذلك من إمكان تفعيلتي الخفيف : فاعلاتن ومستفعلن في صورتيهما الأصليتين، وفي ما يطرأ عليهما من تنويعات نغمية مختلفة ،لتحمل ذلك التنويع الذي يعطي أبعادا نغمية مختلفة تقلل من هيمنة الرتابة التي تجلبها غلبة النزعة الفكرية في الشعر .

أما القافية فقد ختمها بحرف روي هو الياء،وهو حرف سهل الاستعمال يجري مع القصيدة الطويلة بسهولة واضحة ، وإذا كان الياء حرف علة ضعيف التأثير إن كان وحده، فقد قواه الشاعر بوسيلتين هما : التضعيف حيث جعله مشددا، ثم أسبغ عليه ألف الإطلاق لتعطيه امتدادا موسيقيا كبيرا يترك أثره بقوة في ذهن المتلقي وسمعه ،وهو صنيع موفق في مثل هذا السياق سياق البرهان والمحاججة الفكرية التي أجادها المفجّع البصري .

الهوامش :

(1) ظ: الفهرست:١٢٣، معجم الأدباء :١٧/ ١٩٠ـ ٢٠٥ ، المحمدون من الشعراء : ٣٠ ـ ٣٩ ، معجم الشعراء : ٤٩٦ ، العصر العباسي الثاني : ٣٩٦ ـ ٣٩٩ .

(2) رجال النجاشي : ٢٨٩، وظ: الغدير :٤٩٣/٣ .

(3) روي هذا الحديث في مصادر كثير مع اختلاف في بعض الألفاظ : البداية والنهاية :٣٥٦/٧ ، معجم الأدباء : ٢٠/١٧، كفاية الطالب :١٤٥، .

(4) الديوان : ١٢١ ، الزول : الغلام الظريف ، الشجاع ، الجواد .

(5) البقرة / ٣١ .

(6) الديوان : ١٢١ ، الجودي: جبل بآمد وقيل بالجزيرة قرب الموصل، والمراد به الموضع الذي استوت عليه سفينة نوح(ع) .

(7) يقول النبي (ص) : (مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تعلق بها فاز، ومن تخلف عنها غرق) : ينابيع المودة : ٢٧ .

(8) الديوان :١٢٢ .

(9) وهذه الأبيات هي :

وجفا في رضا الإله أباه   واجتواه وعدّه أجنبيّا
كاعتزال الخليل آزر في ا   لله وهجرانه أباه مليّا
ودعا قومه فآمن لوط   أقرب الناس منه رحما وريّا

ظ: الديوان : ١٢١.

ومن الواضح أن هذه الأبيات قد زيدت على القصيدة؛لأنها تتنافى ومذهب الشاعر وعقيدته، ويبدو أن الهدف منها التعريض بأبي طالب و تكفيره ، ومن ثم الطعن بشخصية الإمام علي (ع) .على أن هناك مصادر كثيرة قد أثبتت إيمان أبي طالب وردت افتراءات المدعين .ظ : أبو طالب الرجل المفترى عليه ، أبو طالب سيد المؤمنين ، شعر أبي طالب ـ دراسة أدبية : ١٦ ـ ٣٠ .

(10) الديوان : ١٢٢ ـ ١٢٣ ، الصّفي : الحجر الصلد الضخم ، ينآد : يلتوي ، طاية الكعبة : سطحها أو ظاهرها،

(11) كفاية الطالب : ١٢٨

(12) الديوان : ١٢٣ ـ ١٢٤ ،السبط: ولد الولد أو ولد الابن أو الابنة ،النّجر : الأصل والحسب .

(13) م.ن : ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(14) المشهور بين المفسرين أن قصة الذّبح تتعلق بإسماعيل (ع) وليس إسحاق (ع) ، والدليل على ذلك أن قوله تعالى : (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) الصافات /١١٢، إنما جاءت بعد حادثة السعي والرؤيا للذبح .ظ: الميزان : ٧ / ٢١٥ .

(15) وفيه نزل قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) البقرة / ٢٠٧، وظ: البداية والنهاية : ٣ / ١٧٦ .

(16) الديوان : ١٢٥ .

(17) روي عن النبي (ص) قوله : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وكذلك قوله : يا علي أنت سيد شباب أهل الجنة .ظ: كفاية الطالب : ١٩٨ .

(18) الديوان : ١٢٥ ـ ١٢٦ ، السلع : موضع قرب المدينة ، وقيل جبل بالمدينة، دارت قربه معركة الخندق ، الهالكي : الدّرع.

(19) ظ: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين : ١٢٦ ـ ٣١١ .

(20) الديوان : ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(21) م.ن : ١٢٧ ، مليّا : طويلا أو بعيدا .

(22) روى سعيد الخدري أن رسول الله (ص) أمرنا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلنا يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء،فمع من نقاتل؟ قال : مع علي بن أبي طالب خاصة . ظ: أسد الغابة : ٤ / ٣٣ .

([٢٣]) ظ: كفاية الطالب : ٧٤ .
([٢٤]) الديوان : ١٢٨ ـ ١٣٠ ، القنا الزاعبي : نوع من الرماح تنسب إلى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الأسنة ، الأورق من الإبل : أطيبها لحما وأقلها شدة على العمل والسير ، الأرحبي : منسوب إلى أرحب وهو فحل إبل مشهور .
([٢٥]) الأعراف : ١٦٠ .
([٢٦]) الديوان : ١٣٠ ـ ١٣٢ ، البدي : العجب ،وقد تكون الأرض المفتقرة الى الماء ،قرقوس : الأرض الجرداء المقفرة ، المرت : الأرض القاحلة ،النص : زيادة المسير ،الخيفق والخيطف : السريع ،المضرحي : الصقر أو النسر ،آصي : من الأصاة ، وتعني الرزانة .
([٢٧]) من الفضائل التي خصّ بها الله الإمام علي (ع) يوم بدر ، هو النداء الذي سمعه كل من في العسكر،قائلا :
لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي
ظ: البداية والنهاية : ٧ / ٣١٧ .
([٢٨]) الديوان: ١٣٣ ـ ١٣٤ ،الشرمخي : القوي و الطويل .
([٢٩]) م.ن : ١٣٤ ـ ١٣٥ .
([٣٠]) م.ن : ١٣٤ ـ ١٣٥ .
([٣١]) م.ن : ١٣٥ ـ ١٣٧ ،المفوّه : المتكلم ، اللوذعي : الحديد الفؤاد، واللسان الظريف ،المِصقع : البليغ ، الصّيلم : الداهية ، أو الأمر العظيم ، الثماد : الثمد هو الماء القليل ، أو الحفر يكون فيها الماء قليلا .
([٣٢]) وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بأنه إمام الفصحاء وسيد البلغاء ،وفي كلامه قيل : إنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق .
([٣٣]) م.ن : ١٣٧ ـ ١٣٨ ،الوري : المتقد،الثوي : الموت والهلاك .
([٣٤]) م.ن: ١٣٨ ـ ١٣٩ ، تراخت : توارت .
([٣٥]) م.ن : ١٤٠ ، حداه حديا : من حدا بالمكان أي لزمه، وحدا الشيء تبعه ،البتل : القطع ،أي عهدا مقطوعا ، الحمي : يقال رجل حمي أي لا يحتمل الضيم .
([٣٦]) م.ن : ١٤١ ـ ١٤٢ ، خيرة الله : يُقصد بها سيدة النساء فاطمة (عليها السلام)، الجفنة : القصعة الكبيرة .
([٣٧]) م.ن : ١٤٢ ـ ١٤٣ ، الختل : من ختله أي خدعه عن غفلة .
([٣٨]) م.ن : ١٤٤ ، آس : آسا الجرح داواه وعالجه ، والآسي ،الطبيب ، المحراف : الميل الذي تقاس به الجراحات .
([٣٩]) م.ن : ١٤٥ ـ ١٤٦ ، المقصي : المبعد ،الصلي : الإحراق الشديد .
([٤٠]) م.ن : ١٤٦ـ ١٥٠ ، الأحوذي : المشمر في الأمور القاهر لها ،الذي يغلب في الحرب ، سمود : اللهو ، أو الغفلة ، يفري الفريّا : يوقع بالأعداء ما يثير الدهشة والعجب . ورد قول الشاعر (وهو الحبر والفقيه لدى الفيا) والصواب : لدى الفتيا ، ولعله من أخطاء الطباعة .
([٤١]) م.ن : ١٥٠ ـ ١٥٢ .
([٤٢]) م.ن : ١٥٣ ـ ١٥٥ ، طرا : جميعا .
([٤٣]) م.ن: ١٥٦ .
([٤٤]) ذكر ابن عباس أن رجلا قد سأله عن من قتله الإمام علي (ع) ،فقال له: إن علم العالم صعب لا يحتمله ولا يقرّ به القلوب الصديه، وقد كان علي بن أبي طالب (ع) مثله في هذه الأمة كمثل موسى والعالم عليهما السلام ؛إذ إن العالم قد أتى بأفعال هي في الأصل رضى لله تعالى ،ولكن موسى لم يرتض تلك الأفعال ولم يطق صبرا على صحبته ولا علمه، وكذلك كان علي بن أبي طالب (ع) لم يقتل إلا من كان قتله لله رضى ولأهل الجهالة من الناس سخط . ظ: المحاسن والمساوئ :١/ ٣٠ .
([٤٥]) الديوان : ١٥٧ .
([٤٦]) م.ن : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٤٧) يقول الدكتور إبراهيم أنيس :(إن الشاعر أيا كان نوع شعره،... ، يهدف بنظم الشعر إلى إشباع الرغبة الفنية في نفسه أولا، ثم إرضاء جمهوره ونيل إعجابهم به) . موسيقى الشعر : ١٨٧، وظ : استقبال النص عند العرب : ٩١ ، النص الأدبي والمتلقي (بحث) : ٢٥ ـ ٤٠ .

(٤٨) ظ: الشعر والشعراء : ١/ ٧٤ ـ ٧٥ ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم : ٢٨ ، دراسات نقدية : ١٠ .

(٤٩) ظ : ديوان الصعاليك (عروة بن الورد) : ٨١ ـ ٨٢ ، ٩٣ .

(٥٠) هناك نمط يتخذ فيه الشاعر من المرأة العاذلة – سواءُ أكانت حقيقية أم متخيلة – أداة لإظهار الفخر الشخصي ، إذا ما افتقده في ميدان الحرب ، أو المفاخرة ، أو الخصومة ، ولا سيما قصائد الأجواد والفرسان الذين يحاولون أن يجودوا بأموالهم وأنفسهم ، فتشخص تلك العاذلة لتمنعهم من ذلك . ظ : دراسات نقدية : ٢٤-٢٧ .

(٥١) ظ: الوافي في العروض والقوافي : ١٣٩ .

المصادر والمراجع :

ـ القرآن الكريم
ـ أبو طالب الرجل المفتر عليه ،عقيل الخطيب،التعارف ، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٩هـ ـ ١٩١٩م .
ـ أبو طالب سيد المؤمنين ، عبد الحليم مرزة ، الفياض ، النجف ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .
استقبال النص عند العرب ،د. محمد المبارك ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م .
ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ،ابن الجوزي (عز الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ) ، تحقيق : علي محمد معوض ،وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العالمية، بيروت ـ لبنان ،ط٢ ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .
ـ البداية والنهاية في التاريخ ، ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ن ٧٧٤هـ) ، السعادة ـ مصر ، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م .
ـ بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، د. يوسف حسين بكار، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٥م .
ـ دراسات نقدية في الأدب العربي ،د. محمود عبد الله الجادر ،مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ،١٩٩٠م .
ـ ديوان الصعاليك ، شرح : د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ـ بيروت ،٢٠٠٤م.
ـ شاعر العقيدة المفجّع البصري (محمد بن أحمد بن عبد الله ت ٣٢٧هـ) ، جمعه وحققه وعلق عليه : عبد الرسول الغفار ،دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ،ط١ ،١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
ـ شعر أبي طالب دراسة أدبية ،د. هناء عباس عليوي كشكول ، مكتبة الروضة الحيدرية ، ط١، ١٤٢٩هـ .
ـ الشعر والشعراء ،ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ـ مصر، ط٢، (د . ت) .
ـ العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ـ مصر ،ط٢ ، ١٩٧٥م .
ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، الأميني (عبد الحسين بن أحمد ١٣٩٠هـ) ، الزهراء ـ النجف ، ١٣٦٩هـ .
ـ الفهرست ، ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب ت ٣٨٠ هـ) ،ضبط وشرح : د . يوسف علي الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .
ـ كتاب الرجال ، النجاشي (أحمد بن علي ت ٤٥٠هـ) ،المطبعة الأميرية ـ بولاق ، ١٣٦٨هـ .
ـ كفاية الطالب في مناقب آل أبي طالب ، الشافعي (أبو عبد الله محمد بن يوسف) ، تحقيق : محمد هادي الأميني ،الحيدرية ـ النجف الأشرف ، ط٢، ١٣٩٠هـ .
ـ المحاسن والمساوئ ، البيهقي (إبراهيم بن محمد) ، مطبعة السعادة ـ مصر ، ١٩٠٦م .
ـ المحمدون من الشعراء، القفطي (جمال الدين أبو الحسن) ، دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ،ط١، ١٩٦٦م .

ـ معجم الأدباء ،الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ) ،تحقيق : د . أحمد فريد الرفاعي ، دار المأمون ـ مصر (د.ت) .
ـ معجم الشعراء ، المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى ت ٣٨٤هـ) ، تحقبق : د.فاروق اسليم ،دار صادر ـ بيروت ،ط١ ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م .
ـ موسيقى الشعر ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ـ مصر ،ط٣ ، ١٩٦٥م .
ـ الميزان في تفسير القرآن ،الطباطبائي (محمد حسين) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .
ـ النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين ، الجزائري (نعمة الله) ، مطبعة المكتبة العربية ـ دمشق ، ط٢، ١٩٦١م .
ـ الوافي في العروض والقوافي ، الخطيب التبريزي ، تمهيد : عمر يحيى ، تحقيق : د. فخر الين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ـ سورية ،١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .
ـ ينابيع المودة ، القندوزي (سليمان بن إبراهيم الحنفي) ، طهران ، ١٣٩٣هـ .